التهذيب

تابع ما قبلهُ

فرغنا من الكلام في ما يتعلق بتهذيب الجسد فنشرع الآن في القسم الثاني من التهذيب وهو تهذيب العقل . يراد بالعقل قوة في الانسان تُدرك بالحواس الظاهرة ما هو خارج وتعلم وتؤلف الصور العقلية وتذكر وتفعل وتشعر بوجدانها . وكل هذه الصفات خاصَّة بالحيوان وفاصلة لهُ عن النبات الذي ليس فيهِ شيءٌ من ذلك . ويتميز الانسان عن غيرهِ من الحيوان بقوة النُّطق فهو الحيوان الناطق وهي الحيوانات البكم . وهذه القوة الناطقة هي ما رقَّى الانسان في العلم والمعرفة مما اكتسبهُ من جنسهِ وجعلهُ في رتبة عالية منفردة حتى صحَّ فيهِ قول هملتون الفيلسوف لا شيءٌ عظيم في الدنيا الَّا الانسان ولا شيءٌ عظيم في الانسان الَّا العقل ولما كان استاذًا لعلم ما وراء الطبيعة في كلية ادنبرج كتبها بحروف كبيرة فوق منبر خطابتهِ ليراها الطلبة ابدًا ويذكروا ما للعقل من المكانة في الدنيا وفيهم وما لتهذيبهِ من عظيم الفائدة

قلنا ان قوة النطق الخاصة بالانسان هي المصدر الذي ينشأ منهُ كثير من المعارف التي يكتسبها من الحديث مع اهلهِ ورفقائهِ فهو يتعلَّم منهم في اول الامر اسماء الاشياء ثم صفاتها ثم علاقة العلَّة بالمعلول الى غير ذلك مما يجعلهُ كفوءًا للتفكُّر في الامور والحكم فيها والعمل بمقتضاها فيستقل برأيهِ ويصير حرًّا في سبيل الحياة . وعلى ذلك كان كثير مما يتوصَّل اليهِ من هذا القبيل عائدًا الى صفة الذين يألفهم مدة الصِّبوة والشباب فترى الملوك والعظماء يحيطون اولادهم بمن يأخذون عنهم العلم والظرف في الكلام . وهو ما نراهُ ايضًا في الاقوام الذين لم يجاوزوا هذا الحد في اكتساب المعارف فيجلس شبان البادية وهنود اميركا بمحضر كبارهم صامتين يسمعون كلام الحكمة التي يلقيها اولئك الشيوخ من الخبرة بالناس وحوادث الايام ويتعلمون منهم شيئًا كثيرًا ينفعهم في ما امامهم من الحياة

وكان قوة النطق اساس لكل ما رقَّى الانسان الى منزلة عظيمة في العالم فاستنباط فنّ الكتابة لم يكن اقلَّ منها شأنًا في رفعهِ الى رتبة اسمى في مدار العقل . لان الكتب عبارة عن تسجيل ما حصَّلهُ الجيل الواحد من المعرفة لمنفعة الجيل التابع حتى انهُ مع توالي الاجيال اجتمعت لنا كنوز من الحكمة لا نعرف لها عددًا او ثمنًا فهي لدينا الان ولكل من يطلبها تركةٌ ورثناها من سلفٍ لم يورث شيئًا يضاهيها . وكان فنّ الكتابة في اول الامر عند المصريين القدماء على غاية ما يكون من البساطة لانهُ لم يتجاوز صورة الشيء لاسمهِ كصورة

الرجل لاسم الرجل وصورة الاسد لكلمة الاسد ثم انتقلوا خطوة نحو الابجدية بان جعلوا صورة الماء عبارة عن حرف الميم لانهُ اول حرف يُلفظ فيهِ . واول عهد لهذه الكتابة المعروفة بالهيروغلفية غامض ربما استُقصي الى اكثر من خمسة آلاف سنة قبل التاريخ المسيحي . وبعد ذلك اخذوا عنها ما يسهل كتابتها فاقتضبوها حتى صارت حروفاً على نوعين احدهما للكهنة والاخر للعامة وبقي الامر كذلك الى ما بعد المسيح . واما الاشوريون المعاصرون للمصريين في القدَم والتاريخ فكانت كتابتهم في اول الامر بتصوير الاشياء التي ارادوا ذكرها كما كان عند المصريين ثم نقلوها الى الحروف المعروفة بالاسفينية او المسمارية التي اقدمها منقوش على ختم للملك سرغون قيل انهُ كان منذ ٣٧٥٤ سنة ق.م. وكان المصريون ينقشون على الصخور ما ارادوهُ او يكتبون على قراطيس مصنوعة من ساق البَرْدِيّ وهو البابيروس الذي اخذ عنهُ الافرنج كلمة القرطاس بلغتهم وكانت كتابة الاشوريين غالباً على اللبن او الاجر الذي بقي منهُ الى الآن عدد لا يحصى مجموع في دورٍ العاديّات اي الآثار القديمة

ولما بلغت اللغة منزلة الكتابة قامت المدارس لتعليمها وتدريس مبادىء العلم البسيطة . ثم لما ارتقى شأن العمران والفنون ارتقى شأن المدارس ايضاً حتى صار عدد الكليات منها في مصر اربع تربّى فيها اولاد الملوك والامراء والاغنياء وقيل موسى الذي تبنَّتهُ ابنة فرعون وقصدها علماء اليونانيين كافلاطون الفيلسوف وزنفون المؤرخ لينتفعوا بما كان يلقيهِ الكهنة من الدروس على الطلبة . فقامت الصنائع وشادوا الاهرام الراسخة الى الان كما كانت منذ الوف السنين والهياكل العظيمة كبيل رامون را في الاقصر الذي قال فيهِ احد كبار علماء هذا الزمان انهُ لم يُشد مثلهُ ابداً شيء عظيم لعبادة الله والمدافن العجيبة التي تخترق بطون التلال الى مسافة مئات من الاقدام وفيها من زخرفة التصوير والنقش ما يحيّر الالباب . وقد وقفتْ عندها مندهشاً كثيري من السياح الذين اتوها من اباعد الارض ليروا ما فيها من قدم الزمان ومتانة البناء وجمال الصناعة وما اقتضتهُ من ارتقاء العلوم الدقيقة كالحساب والهندسة والطبيعيات . وكان اكثر العلم والتعليم في تلك الاجيال القديمة الخالية محصوراً في الكهنة على طبقاتهم كما انحصر في القرون المتوسطة في مشايخ الاسلام وخدمة الدين المسيحي . واما حروف الكتابة المصطلح عليها الان فذهب بعض المحققين الى ان اكثرها مأخوذ عن الفينيقيين فحملوها في اسفارهم البحرية الى اماكن بعيدة . فاذا صحّ ذلك حقّ لكثيرين منكم الافتخار فانكم من نسل قوم سادوا البحر والتجارة زمناً طويلاً قبل التاريخ المسيحي ومملكتهم الصغيرة لا تتجاوز الشطوط الواقعة بين طرطوس وارواد شمالاً وصور جنوباً فكانت بيروت من

مدنهم القليلة العدد العظيمة الشأن في فن الابحار وفي الصنائع والتجارة والغنى الذي لم يكن له مثيل في ذلك الزمان

وكما نشأ من قوة النطق في الانسان فن الكتابة الذي سجل علوم الاولين والاخرين واذخرها وصانها من البلاء المشار اليه في المثل السائر كل علم ليس في القرطاس ضاع هكذا كانت هذه الصناعة مرقاة لما يمكن الانسان ان يرتقي اليه من العلم والتهذيب . وهما شيئان الاول اكساب العقل المعارف والثاني تمرينهُ وتقويتهُ ليصير قادراً على حصر القوة الفاكرة في ما توجههُ الارادة اليه لتبصَّر به من جهاتهِ المختلفة وتدركهُ حق الادراك وتحكم فيه حكماً صائباً . فترون مما تقدم انهُ لايختلف عن تهذيب الجسد الاَّ في الغرض فانهُ ينظر في الواحد الى اعمال جسدية غرضها الصحة او شيء آخر من متعلقات الحياة وينظر في الثاني الى علم يكتسبهُ الانسان ويستطيع به اتقان العمل في ما يختارهُ من المهنة مهما كانت

وينال التمرين العقلي عادةً في المدارس ولكنهُ لاينحصر فيها لان بعض الاولاد والشبان يتلقون العلم في بيوتهم من معلمين يتفرغون لهم وبعضهم لا يتيسر لهُ المدرسة فيقرأ لنفسهِ او على معلم خاص وبعضهم لا يكتفي بما حصلهُ في المدارس فيطلب زيادة العلم باستمرارهِ على مطالعة الكتب الحديثة او التجول في البلاد البعيدة وتعهد مدارسها الشهيرة وحضور خطب كبار علمائها . ولكن الغالب والافضل في طلب العلم هو التربية المدرسية التي سير الدروس والعلوم فيها على شكل منتظم متتابع بادارة معلمين يختبون لما فيهم من الاهلية والخبرة في صناعة التعليم . وهناك فائدة اخرى كبيرة للمدرسة وهي ما يتولد في الشاب من الحماسة والغيرة والجد في المنافسة الجارية ابداً بين الطلبة في دروسهم والعابهم

وللمدارس انواع يتدرَّج الطالب فيها من الادنى الى الاعلى ويصح ان تقسم الى ثلاث رتب كبرى . الاولى الابتدائية ويقال لها البسيطة ايضاً وهي ما يتعلم الولد فيها القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والجغرافية والتاريخ . ويجبر الاولاد في بعض البلدان على ملازمتها في السنة السابعة من العمر الى السنة الثانية عشرة حتى صار فيها عدد الذين لايحسنون القراءة قليلاً جداً وهو مما ترتقي به الامة في العمران والثروة وراحة المعيشة حتى للفقراء . ومن المعلوم ان الذي لا يتعلم القراءة في صغر السن يندر ان يتعلمها بعد ذلك وان الذي يستطيع مطالعة الكتب والجرائد اقدر غالباً في حرفتهِ من رفيقهِ الجاهل واذا جدَّ فربما بلغ من العلم ما يمكنهُ من مجالسة العلماء والاتفاخ بهم او ان يعد منهم

والرتبة الثانية من المدارس تسمى بالعالية وهي المعروفة عند الالمانيين بالجمناسيا التي يشب

فيها الولد الى السنة الثامنة عشرة او العشرين من العمر . وافضلها مقسوم الى شطرين احدهما لطلبة العلوم الحديثة في ما ينفعهُ من المعارف والتهذيب للمقام المعتبر بين الناس او للتجارة وغيرها من ابواب كسب الرزق . واخص دروس هذا الشطر اتقان ما بدأ بهِ الطالب في المدرسة البسيطة من الجغرافية والحساب والتاريخ والشروع في الجبر والهندسة والمساحة وغيرها من الرياضيات والفلسفة الطبيعية والانشاء وبعض اللغات الحديثة ويضاف اليها في جميع المدارس الاوربية والاميركانية اللغة اللاتينية لانها قاعدة للغاتهم والمنشأ الاصلي للكثير من كلماتهم ولا سيما الحديثة العلمية منها . ولما كان درس بعض اللغات الافرنجية مفروضاً الآن في المدارس العربية فربما كان تدريس هذه اللغة فيها من الواجب ايضاً . واما الشطر الثاني من هذه الرتبة فهو لطلبة الرياضيات العالية والفلسفة الطبيعية واللاتينية واليونانية من الذين يستعدون لدخول الكلية ومنهم من يتهيأ لامتحان المناظرة في خدمة الدولة ومنهم لما يليق بمقامهِ في الهيئة الاجتماعية وبين كبار قومهِ

والرتبة الثالثة هي المعروفة بالجامعة او الكلية . ويتبيَّن لكم من اسمها ان القصد منها هو اعلى ما يطلبهُ الشاب في الفلسفة الخاصَّة بما وراء الطبيعة وفي ما وصل الينا من افضل كتب القدماء من اليونانيين والرومانيين في الفلسفة والشعر والرواية والتاريخ والمهن العلية كعلم الطب للاطباء وعلم اللاهوت لخدمة الدين وعلم الحقوق لاهل الشرع . غير ان كثيرين من طلبتها يقصدون فيها غاية ما يمكن تحصيلهُ في المدارس من العلم والتهذيب العقلي حبًّا بهما او لخدمة الوطن في مجالس الامة وتولي السياسة والاحكام في بلادهم ومستعمراتها وقد سمعنا او رأينا بعضهم فالفيناهم افاضل عظاماً في جودة العقل وكثرة المعارف وحسن التدبير ولم يكونوا على شيء من ذلك لولا دروسهم الطويلة في احسن معاهد العلم . ولهذه الرتبة وحدها الحقّ في منح الالقاب المدرسية التي لها شأن عظيم عند الاقوام المتمدنين لانها تميّز من ينالها بالشهادة لما قضاهُ من جدّ الايام والليالي في طلب العلم . وهذه الالقاب هي البكلوريوس والمعلم والدكتور في كل من اقسام العلوم والفلسفة والطب واللاهوت تُعطى مكتوبةً للطلبة بعد درس سنين معلومة وامتحان خاصّ . وهي تمنح في حفلات مشهودة وربما لم يكن للشاب ولاهلهِ ساعة ابهج من تلك الساعة التي فيها يدخل المحفل لابسًا الثوب الخاصّ بلقبهِ ومدرستهِ (١) وحاملاً شهادتهُ بيدهِ . ولهذه المدارس ايضاً ان تمنح لقباً اكراميًّا لمن لم يكن من طلبتها

(١) الالوية المدرسية قديمة العهد في التاريخ منها للطلبة ومنها للذوي الالقاب وكان الطيلسان لعلماء الاسلام من هذا القبيل

اذا اشتهر في بحث علمي عظيم او في تأليف كتب لها المقام الاول في الفضل او في فن او عمل كبير مذكور . وقلما نبغ احد في شيء من ذلك وشمخ صيته الاَّ اكرمته المدارس كما اكرمهُ الجمهور ولكن العظيمة منها ضنينة بالقابها الاكرامية الاَّ على نوادر الرجال

هذا شأن المدارس في ايامنا وهو ما وصل الينا من زمن النهضة العلمية التي بدأت في اوائل القرن السادس عشر وارتقت الى حالتها الحاضرة بعد الخبرة الطويلة . واما القول انها السبيل الوحيد الى اكتساب العلم وتهذيب العقل فنيء نظر لان كبار العلماء والمصنفين من اليونانيين والرومانيين والعرب لم تكن لهم هذه الوسائل الحديثة . فمنهم هوميروس الذي لا يزال نشيدهُ التاريخي في حرب طروادة قدوة لشعراء اوربا الى الآن وقد مرَّ ثلاثة آلاف سنة لعهدهِ . ومنهم افلاطون الذي نبغ في القرن الرابع قبل التاريخ المسيحي ويقرأ الطلبة الآن كتبهُ في كل المدارس العالية بلغتها الاصلية لما فيها من المسائل العويصة التي اذا خوَّض العقل فيها تمرَّن واشتدَّ . ومنهم اقليدس الذي وضع كتبهُ في الهندسة في القرن الثالث ق . م وهم يعلمونها الآن بنفس عبارتها بلا تغيير او تبديل . وكثيرون غيرهم كتبوا التاريخ والروايات والشعر . ولما قامت حديثًا في كلية اكسفورد مسئلة الغاء اللغة اليونانية من وجه كونها جبرية على كل الطلبة احتجوا بوجوب ابقائها لما في بنائها وكتبها من الفضل الذي لا يستغنى عنهُ في اجهاد العقل وتقويتهِ فهي ثابتة الى الان لم يحكم بابطالها . واما العرب فهم الذين وضعوا علم الجبر ورقَّوا ما سلف من الحساب والهيئة على انهم لم يقرأوا الاَّ بعض الكتب القديمة المعوَّل عليها في الفلسفة والهندسة والطب التي ترجمها علماء النساطرة في زمن الدولة العباسية فاخذوا عنها كثيرًا من العلم وشادوا المدارس في كل اقطار المملكة وتقاطر الى ما كان منها في الاندلس شبان اوربا ليدرسوا فيها العلوم ولاسيما الطب . وقام منهم علماء كبار كالشيخ الرئيس ابن سينا في الطب الذي طُبع كتابهُ المعروف بالقانون في رومية سنة ١٥٩٣ وتُرجم الى اللاتينية التي كانت حينئذٍ لغة المدارس والطلبة وبقي زمانًا طويلاً المعوَّل عليهِ في هذا الفن . ومنهم ابن رشد في الفلسفة وابن خلدون في التاريخ والحريري في اللغة والانشاء والمتنبي والمعرّي في الشعر وكثيرون غيرهم من الرتبة الاولى في القوة العاقلة . وربما لم يكن التعمُّق في درس ألفية ابن مالك وشرحها لابن عقيل او الفقه الاسلامي وغيرهما من العلوم العربية اقلّ عملاً في تهذيب العقل مما يُحصَّل من درس هندسة اقليدس او فلسفة افلاطون او اللغات القديمة وآدابها

ولكن الزمان قد تغيَّر وتغيَّرنا نحن معهُ ولم يبقَ ريب في ان العلوم الحديثة ومدارسها

قد رفعت شان الامم الحاضرة في العمران. وقد كان لنا في هذه الايام شاهد على ذلك لا يُقدَّم في الامة اليابانية التي بلغ خبرها الآن اقاصي المسكونة. فانها استفاقت فجأة منذ خمس وثلاثين سنة فقط من غفلة قرون لا تحصى واخذت تبحث في ما يكون بهِ اصلاح امرها فارسلت وفوداً من خيار رجالها الى الممالك المشهورة في العلم والتمدن وفرّقت نخبة شبانها ليطلبوا العلم في افضل مدارس المانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى واميركا وفي هذه السنة نالت سيدة يابانية اسمها تادا يوراتا الدكتورية في الطب من مدرسة ماربرج الالمانية وهي اول امرأة نالتها من تلك المدرسة الكلية على ما هي عليهِ من التشديد في امر الدروس والامتحانات . وما لبثوا ان اخذوا عنهم غاية ما بلغوهُ من استقامة الاحكام وحرية الافراد وارتقاء التربية المدرسية وانتشارها بين العامة والخاصة وجودة الصنائع والفنون ثم لم يُعلم من امرهم اكثر من ذلك الى ان حاربوا اهل الصين ثم الحرب الهائلة القائمة الآن بينهم وبين دولة عظيمة هي روسيا فادهشوا العالم اجمع بما اظهروهُ من حسن السياسة والتدبير والبسالة والاقدام وفن الحروب براً وبحراً ومراعاة جانب الانسانية في معاملة الاسرى والجرحى واحترام الحقوق وصاروا في الرتبة الاولى من رتب الدول العظيمة . وكان في كل ذلك صوت صارخ لاهل الارض جميعاً ان يستيقظوا ويعلموا قدْر المدارس والعلم في ما مضى وحضر وسيأتي من تاريخ الجنس البشري

وهو صوت هاتف اليكم ايضاً ايها الشبان لتنتبهوا الى ما انتم عليهِ اليوم والى ما تكونون عليهِ غداً . فان انتهزتم الفرصة التي أُنعم عليكم بها وجددتم في دروسكم واحرزتم كل خطوة ومثالة ومطلب حتى يتسهّل لكم التدرُّج الى ما بعدها وانكببتم على القراءة والكلام والانشاء وانتخبتم مهنةً تُتقنونها وتزيدون انفسكم علماً فيها مدى الحياة وقلعتم عن الكسل والتواني وعن كل عادة تنهك قواكم وتشتت افكاركم الى ما لا نفع منهُ — كان نجاحكم الحاضر والمستقبل في تحصيل العلم من الامور التي لا ريب فيها وان لم تفعلوا صحّ فيكم قول الشاعر

ومن رامَ العلومَ بغيرِ درسٍ ... سيُدرِكُها اذا شابَ الغُرابُ

لما فرغنا من الكلام في تهذيب الجسد وتهذيب العقل وصلنا الى القسم الثالث الاخير من هذا البحث وهو تهذيب النفس اي طبعها على كل خلق كريم . فهو جل الغرض المقصود في مدارس هذا العصر اذ ما الفائدة من كثرة العلم وذكاء العقل اذا خرج الشاب منها قبيح الصفات شرساً معجباً بنفسهِ مؤذياً للناس . ويراد بالنفس الشيء الذي يشير اليهِ كل احد بقولهِ انا . قال ابو البقاء في كلياتهِ للانسان نفسان حيوانية تموت عند موت الجسد وروحانية لا تموت وهي ما يفهم ويعقل ويميز . وتعريفها عند جمهور الحذاق انها الجوهر الروحاني في

الانسان العاقل الخالد المسأول في حكم الله الادبي . وهي التي يتميز الانسان بها عن الحيوان الابكم لا من حيث قوة النطق فقط وارتقاء الصفات والقوى ارتقاء عظيماً يجعله في منزلة معتزلة عنهُ ولكن على الخصوص في مرهبة التمييز بين الحلال والحرام فهو الحد الحاد الفاصل بينهما . وقد اشار اليها الرئيس ابن سينا في ارجوزته المعروفة بالتي مطلعها

هبطتْ اليك من المحل الارفعِ ورقاء ذات تعزُّزٍ وتمنعِ

هذا ولما كانت على كل ما ذكر من المقام الرفيع في الانسان وفي العالم رأينا حالاً ما لتهذيب اخلاقها الادبية من القدر العظيم وهو في الجملة الابتعاد عن الاخلاق الذميمة والاتصاف بالاخلاق الممدوحة الكريمة ويقال لهُ عند بعضهم علم السلوك . وساذكر لكم الآن اخصها

(١) الاقدام على الامور والشجاعة فيها والملازمة لها والتعويل على النفس . وليس بدونها فلاح في الحياة فان الكسلان والجبان والمتقلب المتردد ومن يتوكأ ابداً على غيره لا نصيب لهُ في هذه الدنيا الاَّ ما كان يسيرًا حقيرًا . فانتصبوا واقتحموا صعاب المطالب ولا تهابوا شيئاً الاَّ الكذب والحرام . وانتهزوا الفرصة متى جاءت فانها كما قال فيها شكسبير مدٌّ اذا انتهز حمل الى السعد واذا اهمل كان كل سفر الحياة محولاً وشقاء . ومن اقوالهِ ايضاً ما الافكار الاَّ احلام لا تصح الاَّ اذا برزت في العمل . واذا انكم مصيبةٌ فتحملوها بالصمت فان الشكوى لغير الله مذلة . وهو ما اوصى بهِ الامبراطور فردريك وهو في مرضهِ الاخير الطويل المؤلم ابنهُ وهلم الثاني امبراطور المانيا الحالي يا ابني تعلم احتمال الشدة ولا تضجر منها . وقال شاعر عربي في التعويل على النفس

وانما رجلُ الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجلِ

وقال آخر في وجوب غاية السعي

على المرء ان يسعى الى الخير جهدهُ وليس عليهِ ان تتمَّ المطالبُ

(٢) تكريم النفس وهو الشهامة اي عزة النفس وترفعها عن كل ما هو خسيس ذميم حقير في سيرة الانسان الظاهرة والباطنة . فلتكن انفسكم ابية ابداً وابعدوا عن كل ما يعيبكم من الحقد والحسد والغيبة والظلم والاستهزاء بالناس والتهكم عليهم وهم ربما كانوا ارفع منكم علماً ومقاماً . وكونوا كرماء اسخياء واجتنبوا البخل القبيح الذي قيل فيهِ ان البخيل يعيش في هذه الدنيا عيشة الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الاغنياء . ولا تتذللوا لاحد بغية الخير منهُ ولا سيما اذا كان لئيماً بل اعرضوا عنهُ

وكن ابيًّا عن الاذلال ممتنعاً فالذل لا ترتضيهِ همة الرجلِ

واذكروا ما قالهُ شكسبير اذا خسرت كرامتي فقد خسرت نفسي وما قالهُ زهير في بعض هذه المعاني

ومن يغترب يحسب عدوًّا صديقهُ ومن لا يكرم نفسهُ لا يكرمِ
ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ يفرهُ ومن لا يتق الشتم يشتمِ

(٣) الصدق . وهو اعظم الفضائل كما ان الكذب اقبح الرذائل . فهو الدعامة الحاملة للهيئة الاجتماعية باجمعها بحيث انهُ اذا بطل لا نعلم ماذا نصير اليهِ من الخراب . وهو اخص ما تتميز بهِ الكريم عن اللئيم بل تقول ان الصادق رفيع المقام ابدًا يوثق بهِ في الكلام والعمل ويعهد اليهِ بما يكسبهُ كثيرًا من الخير واما الكذاب فحبلهُ قصير لا يلبث ان يسقط في اعين الناس فيصير حقيرًا مكروهًا مجتنبًا وربما ادَّى ذلك بهِ الى قلة اسباب الرزق وفقر المعيشة . ومن اقوال الحكماء في هذا المعنى تكلم بما تعلم صدقهُ وليكن كلامك مطابقًا لما في باطن نفسك . اثمن كنوز الدنيا الصيت الطاهر فاذا زال لم يكن الانسان الاَّ طينًا مصبوغًا . لو صوِّر الصدق لكان اسدًا يروع ولو صوِّر الكذب لكان ثعلبًا يروغ . يبلغ المرء بالصدق منازل الكبار . الصدق صدقان اعظمهما في ما يضرُّك . الصدق عمود الدين وركن الادب واصل المروَّة ولا تتمُّ هذه الثلاثة الاَّ بهِ . الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب

ومن اخصّ انواع الصدق وافضلها الوفاء بالعهد اي القيام بما يعهدهُ الانسان على نفسهِ من الوعد لغيرهِ . وربما لم يكن لي ان اوضح المعنى المراد باحسن من ذكر شاهدٍ لهُ جرى في التاريخ . وهو انهُ لما كان ولهلم الثاني امبراطور المانيا في دمشق منذ سنين قليلة ذهب بمحفل عظيم الى ضريح السلطان صلاح الدين الايوبي ووضع عليهِ اكليلاً من الازهار فعجب الناس من ذلك . وانما فعل الامبراطور ما فعل لان هذا الرجل العظيم اظهر في حروبهِ مع الصليبيين من الشهامة والمروَّة والوفاء بالعهد ما صيَّر لهُ شهرةً ذاع خبرها من ذلك الزمان الى الآن حتى ان كل اولاد مدارس العالم المتمدن يقرأونها ويرون فيها قدوةً لهم في عزَّة النفس وشرفها . فمن ذلك انهُ لما حاصر صلاح الدين القدس وضيق على حاميتها وجبرهم على التسليم صالحهم على الخروج منها بعيالهم واموالهم الى المين التي كانت حينئذٍ بيد الصليبيين بفدية عشرة دنانير عن كل رجل . ولما اخذوا يخرجون ويدفعون ما ترتب عليهم من الفداء كان بينهم بطريقهم الكبير ومعهُ بغال حاملة خزائن عظيمة من المال فاشار الى السلطان بعض أمرائهِ بما كانوا يرونهُ وقالوا لم يُعقد الفداء والصلح على هذا المال قال بلى قد عاهدتهم على عشرة دنانير لكل رجلٍ فيدفعها ويذهب في سبيلهِ وهكذا كان فصدق فيهِ المثل السائر الذي ذكرناهُ آنفًا الصدق

صديقان اعظمهما في ما يصرفك. ولكنهُ كما كان صارماً على نفسهِ في غاية الوفاء كان ايضاً شديد العقاب للذين ينكثون العهد. فمن ذلك ان امير الكرك الصليبي نقض الهدنة وغزا قافلةً من المسلمين فقتل الرجال ونهب المال ولما بلغ الخبر السلطان غضب غضباً شديداً ونذر على نفسهِ ان يقتل ذلك الخائن بيدهِ اذا مكَّنهُ الزمان. وكان الامر كما اراد لان من جملة الاسرى الذين سلموا للسلطان بعد واقعة حطين كان ملك القدس والامير المذكور آنفاً ولما وصلوا جميعاً الى طبريا ونزلوا في مضرب طلب الملك ماء ليشرب بعد يوم قاسى فيهِ الصليبيون من العطش ما لا يوصف فامر لهُ صلاح الدين بذلك ثم بعد ان ارتوى ناول الكاس الى رفيقهِ الامير فشرب والسلطان ينظر اليهِ ولا يقول شيئاً. ولما فرغ قال لهُ صلاح الدين اني امرت بالماء للملك لا لك لاني لو فعلت ذلك لكنتَ آمناً مراعاة لحقوق الضيافة وقد عهدت على نفسي ان اقتلك بيدي لنكثك الهدنة التي اتفقنا عليها وايقاعك بقوم سائرين آمنين واني فاعل ذلك الان ثم قام وضرب عنقهُ بالسيف. فكان شهماً عظيماً بفي بوعدهِ ابداً ويتطلب الوفاء من الذين يعاهدونهُ وصار رُعباً للراوغين في زمانهِ وعبرةً في كل جيل لكل من يروم العلاء في المكارم. ومما ذكر في تواريخ تلك الحروب انهُ كانت مودَّة شديدة بين صلاح الدين وريكاردوس ملك الانكليز الملقَّب بقلب الاسد لما كان في كليهما من الصفات الرفيعة فكانا يتقاتلان ويتحابان حتى انهُ لما مرض ريكاردوس في عكا بالحمَّى ارسل لهُ صلاح الدين الفواكه والثلج ولما قُتل جوادهُ في حرب يافا التي انهزم فيها جيش المسلمين بامارة السلطان ارسل لهُ جوادين من خيار الخيل العربية. وقرأتُ في التواريخ العربية والافرنجية انهُ جرت مراسلة بينهما لزواج اخي صلاح الدين بابنة عمّ ريكاردوس ولكنهُ لم يتمّ. فلما وضع الامبراطور ولهلم ذلك الاكليل من الازهار على قبر مكرم لم يكن في ذلك شيءٌ يوجب الدهشة والعجب بل هو ما لاق بمقامهِ العالي ان يشهد لدى العالم بما احرزهُ صلاح الدين الايوبي من الاحترام في كل نفس شريفة

وقد استقصى ماركوس اوريليوس الامبراطور الروماني البحث في الاخلاق الحميدة التي يجب على الشاب ان يسعى اليها جهدهُ ويربيها في نفسهِ ويتميز بها في حياتهِ وجمعهُ في كتاب لهُ معروف باسم الافكار ومشهور بين الناس ولعلكم جميعكم تقرأونهُ اما في ترجمة او في لغتهِ الاصلية. فمن جملة كلامهِ في ذلك الكتاب ما قالهُ في الفيلسوف مكسيموس وهو تعلَّمتُ منهُ الحكم على نفسي وعدم الانقياد الى شيءٍ من الشرّ والبشاشة في كل حال ولو في المرض والجمع بين لين الجانب وكرامة النفس والعمل في ما أُكلَّفهُ بلا ضجر. ورأيت

الجميع على يقين من انهُ كان يعتقد بما يقولهُ وانهُ لم يكن في كل ما عملهُ شيء من سوء النية ولم يدهش ابدًا او يبغت ولم يعجل في امرٍ او يؤخرهُ في العمل (١) ولم تأخذهُ حيرة او كرب ولم يضحك ليكتم كدرهُ ولم يكن غضوبًا او ظنانًا . وكان يعمل الخير سهل الصفح بريئًا من كل ما فيهِ كذب وعليهِ سمة الرجل الذي لا يمكن تحويلهُ عن الصلاح لا الرجل الذي قد أُصلح . ومن اقوال مركوس اوريليوس ايضًا وتعلمت الحياء والمروءة والشهامة والاحسان والنزاهة لا عن اعمال السوء فقط بل عن افكار السوء ايضًا وتحمُّل التعب والكدّ باليد والبساطة في المعيشة وعدم التحرُّش بامور غيري وان لا أُشغل نفسي بالاشياء البخسة . وتعلمت ايضًا ان اعاشر العلماء وان اخلاقي محتاجة الى الاصلاح والتهذيب وان ابعد عن المباحث التي لا شيء فيها الاَّ الحيرة وعن التظاهر بالعلم والصلاح وان لا اكتب بالتكلُّف وان اصالح من اضرَّني بالكلام او العمل اذا اراد وان اقرأ بالتمعن ولا ارضى بفهم كتاب فهمًا قليلاً وان لا أُسرع الى تصديق من يكثرون الكلام وان لا انظر ابدًا الاَّ الى المعقول . وتعلمت ان اقبل من الاصدقاء معروفًا لا أُذَلُّ بهِ ولا اغفل عن شكرانهِ ووفقت المعيشة على ما يوافق شرائع الطبيعة والرصانة بلا مصانعة وان أُراعي مصالح اصدقائي وان اتحمل جهالة الجهَّال والذين يذهبون مذاهب وهم لا يتبصرون فيها انتهى . فهذه الاقوال وامثالها التي تشغل نحو مائتي صفحة من كتاب صغير حكم ثمينة اذا اصغيتم اليها وعملتم بما ترشدكم اليهِ كان لكم منها نفع عظيم في صفاتكم الذاتية ومنزلتكم عند الناس وعون كبير لما تجدُّون فيهِ من مساعي الحياة

وعند الامة الانكليزية كلمة شاملة لبعض الفضائل في الانسان لا تستوفي معناها كلمة واحدة في غيرها من اللغات ولذلك اخذوها كما هي الى لغات كثيرة . وهي كلمة جنتلمان (gentleman) للرجل ومعناها الحرفي الرجل اللطيف على انهُ يراد بها اكثر من ذلك وهو كل ما يميزهُ باللطف والصدق والوفاء وحسن الخلق والسلوك والادب والنظافة وعزة النفس والشكر على المعروف عن الجلف الفظ الخسيس الدنيء الساقط . وهو عندهم حد حاد فاصل بين رتبة شرفاء القوم ورعاعهم — بين اكابر الهيئة الاجتماعية والاجلاف الذين يرفض قبولهم فيها . وهي كثيرًا ما تكون موروثةً في سلالة الاكارم او مكتسبة من معاشرتهم او غريزية في بعض الناس . وقد رأيت في كثيرين من اهل المشرق كأنها طبيعية فيهم مولودة معهم لاتختلف عما يشاهد في غيرهم

(١) ولا أُوخرُ شغلَ اليوم عن كلِ الى غدٍ انَّ يومَ العاجزين غدُ

ومن ذلك انهُ لما كنت طبيب مستشفى فرسان مار يوحنا في بيروت دخلتهُ اختان مصابتان بمرض في العيون من قرية بيوتها لا تختلف عن المزابن . وكانت الكبيرة منهما في نحو السنة السادسة عشرة من العمر والصغيرة في السادسة أو السابعة وبقيت في المستشفى بضعة شهور اراهما كل يوم والكبيرة تسألني دائمًا عن اختها ولم تسألني مرة واحدة عن نفسها . فعجبت كل العجب كيف ان هذه الفتاة في اول صبوتها وشدة مرض بصرها تنسى حالها وتهتم لاختها الصغيرة وسألت رئيسة المستشفى التي كانت ترافقني في عيادتي اليومية وهي من حاذقات نساء الالمان هل انا مخطئ في ما اخذني من العجب قالت لا لان هذه الابنة على غاية اللطف في كل تصرفاتها واخلاقها من اكرم الاخلاق وامرها من النوادر التي تذكر في اجتماع التربية الحقيرة والمنزلة الوضيعة مع علو النفس الغريزي . وقال احد كبار العلماء في هذا العصر ان صفة الكريم كصفة الشاعر فطرة طبيعية لا مكتسبة على ان السعي اليها والجد فيها وتربية النفس عليها من الامور الواجبة الممكنة . فانتبهوا ايها الشبان الى هذه الكلمة ذات الشأن العظيم والى معناها والى ماتؤدي اليهِ من الكرامة

فما للمرء خير في حياةٍ اذا ما عدَّ من سقط المتاعِ

لقد طال هذا الخطاب وربما مللتم منهُ وحسبتم ان المقياس الذي نصبتهُ امامكم عالٍ لا يصل اليهِ احد من البشر واني نسيت انكم خلقتم ضعفاء وان التجارب التي في باطنكم والتي تحيط بكم شديدة البأس هيهات ان يسلم احد من غيها او لا يقع فيها ويسقط ويتهشم . فاقول اني لم انسَ شيئًا من ذلك واني اعرفهُ حقَّ المعرفة لاني قد جربت العقاب التي انتم سائرون فيها الآن وتعلمت بالخبرة ما انتم تعلمونهُ وما لا تعلمونهُ ولذلك كان لما اوصيكم بهِ في ختام الكلام شأن عائد لا الى فضلٍ فيَّ بل الى حياة طويلة ودرس طويل ومراقبة طويلة في انهماك الشباب في الجهل وضلال الدنيا للجميع حتى الشيخ الذي يئنُّ منها ويقول

فإنَّ امرأً قد سار بالسوء ما انعظت من جهلها بنذير الشيب والهرمِ

فوصيتي الاولى ان تدأبوا دائمًا في تهذيب اجسادكم وعقولكم وانفسكم على ما تقدم من الكلام . واذا كان القياس الذي تشخصون ببصركم اليهِ رفيعًا او وهميًّا عقباتهُ كثيرة عسرة فلا تيأسوا لانكم اذا لم ترتفعوا الى اعلاهُ ارتفعتم ولا محالة الى بعضهِ وهو شيءٌ يذكر . قال احد الافاضل وصدق هل سمعتم ابدًا ان احدًا جاهد كل جهادهِ جهادًا امينًا صادقًا في نيل غرض ولم ينل شيئًا منهُ ألا ترتفع النفس اذا تاقت دائمًا الى الخير . هل سعى احد للرجولة وعزَّة النفس والصدق والاخلاص وكان جهدهُ عبثًا

ووصيتي الثانية صلّوا ابدًا صلاة داود النبي القائل قلبًا نقيًّا اخلق فيَّ يا الله وروحًا مستقيمًا جدد في داخلي . فهي افضل ما يصعد القلب فيهِ الى الله من الصلاة لانكم اذا نلتم منهُ تعالى القلب الطاهر الذي ينفر من الدنس ويجتنبهُ ويحاربهُ واذا كان فيكم الروح المستقيم روح الصدق والاخلاص والعدل والكرم والبر والاحسان واغاثة المسكين فقد نلتم امرًا كبيرًا . واذا وجدتم ابواب السماء مغلقةً لايجتازها صراخكم — وهو عسر التصديق — فليس في ذلك عبث اذ ينعكس عملهُ في باطنكم ويحملكم على الجد في كل ما منهُ خيرٌ لكم . واذا عثرتم وسقطتم فلا تقنطوا بل انهضوا في الحال وجددوا القتال ما دمتم احياء ولا تكفوا حتى تغلبوا

ألا في سبيل المجد ما انا فاعلٌ عفافٌ واقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

الاغلاط الاستقرائية

في الانسان كما في غيرهِ من الموجودات قوة وضعف وكمالٌ ونقصٌ يرى الناظر اليهِ خلقًا في احسن تقويم يديرهُ عقلٌ لا يُسبر غورهُ ولا تعرف حقيقتهُ يحلُّ المبرمَ ويكشفُ المُلتفَّ ويدفع الامر الجلّل على انهُ ربما سقط في ما لا تسقط فيهِ العجماوات ومزج في الباطل ملحًا يُزري على باطل المعتوهين وهذيان المتخبطين . ويتفاوت نصيب الامم من هذا الانحراف العقلي ويختلف باختلاف تربيتها ودرجة قواها العقلية . . . الجاهلة الخاملة لما استسلمت لتيار جهلها وانقادت لصوت طيشها كان نصيبها من امراض العقل اوفرَ من نصيب جاراتها من الامم الحية التي نشأت في زوايا الكليات الجامعات وقعدت على منصّةِ العلم وتربعت في نوادي الادب

قال جنس "قد يقضي قوم حياتهم ناظرين سامعين شاعرين وهم لا يفقهون معنى لما رأوا" ونعرف من الشعوب من اذا انهكتهُ المظالم واهلكتهُ القوارص وضعضعت مناكبهُ صفقات الشرطة وويلات المستبدين ذهب الى أن ذلك مثال كامل في العدل ونموذج حسنٌ في حسن السياسة

بمثل هذا انحراف العقل عن جادتهِ وعلى هذا النمط اختلفت الامم في شعورها حتى بلغ الذهول ببعضها درجة المسلوبين المخدَّرين

وقد ذكرت في ما يأتي اغلاطًا استقرائية كثيرة الحدوث خصوصًا بين ظهرانينا وأرجعتها الى انحراف في الحسِّ والحكم والتسليم والخيال والادراك ونقص في الاستقراء . ولم